قصة قصيرة

تيسير نظمي

أحمد حسن

«إلى محمود درويش»

يترنحون. الآلات تدقدق، تصفر. والشوارع تُهدم وتُحفر. الأنابيب الكبيرة تلقى في الحفر. تقترب الجرافات وتبتعد. تقترب وتبتعد. تُهدم ثم تُردم. السواعد والوجوه السمراء المقدوحة مبعثرة في الحفر وفوقها، على طرف الشارع. السيارات الفارهة سيل لا ينقطع، مسرعة تثير الغبار على الجباه المتصببة عرقاً وصبراً.

يترنحون في عمل دائم. خلية نحل سوداء.

من مطلع الشمس حتى مغيبها، وجع الظهور والسواعد والسيقان ينتظر الساعة السادسة. الوقت يطول. الدوام يطول. والشوارع تُهدم وتُردم. والسادسة هي الحلم الممكن والمسموح. كان أحمد حسن بينهم. بملابس زرقاء داكنة. يعمل على آلة حفر الأسفلت. قامته انحنت قبل مئة عام. قبل مئات. أحمد حسن سقطت بطاقة عمله. في الساعة الحادية عشرة ليلاً قرر الذهاب للبحث عنها قبل أن تأتي الجرافات في الفجر وتقلب الأرض عاليها بسافلها. هناك عند طرف الشارع الذي كان يحفره اليوم،لا بد أنها سقطت من جيبه.

أحمد حسن يفتش كدجاجة في التراب. السيارات في الثانية عشرة ليلاً قليلة. تمر مسرعة. هائجة لسبب وبلا سبب. أحمد حسن كان متعباً. والبحث عنها أيأسه وحيّره. قبل أن يرفع ظهره المحني قذفته سيارة مرت كالبرق منحرفة قليلاً فأردته ذبيحة لا حراك فيها فوق الأنبوبة في الحفرة الكبيرة. للحظة ارتمت الجثة مصلوبة فوق الاسطوانة الكبيرة ثم ترنحت ممرغة بالرمل خافية عن الأنظار. السيارة غابت بعيداً مسرعة وحيدة.

في الصباح تدفقت القامات المحنية. دبّت الحياة في الجرافات وبدأ الردم. صعدت الشمس وبدأت قسوتها. بدأ الحشد ينغل كالنمل. يترنحون. السيقان المعروقة تتحرك. الأعين المقتولة قبل مئة عام. الجباه المنخورة بالعذاب. البطاقة المتروكة. ملقاة. مهملة. النمل والحشرات تبحث عن جثته. بلا جدوى. قاتل أحمد حسن المكمن للنمل والحشرات. الحشرات تحتج على وطن لا تجد فيه جثة ميت تأكلها. أحمد حسن القطع غادرنا قِطَعاً قِطَعاً. لحمًا ودماً، وعينين نصف حالمتين.

أحمد حسن القطع غادر قبل موعد سفره لأهله بيومين. بأيام ثلاثة. بسنين. لم يكن موعد سفره محدداً تماماً. لكنه غادرنا قِطَعاً قِطَعاً بطريق البر والبحر. أحمد حسن في الأرض. أحمد حسن القطع يتحول. أحمد حسن على مقربة من ثروات الأرض. أحمد حسن القطع في الاسطوانات. في الخزانات. في الميناء. بعينين نصف يائستين. يساعد معروق بالتواريخ. بالتواريخ المعروقة بالهزائم. بالهزائم المعروقة بالقهر. بالقهر المعروق بالمذلّة. بالمذلة تزاحم الحشرات. الحشرات تحتج على هذه المزاحمة المستمرة. تريد وطناً بلا ذل منتشر. تحتج على هذا التعب المتواصل دون جدوى. أحمد حسن القطع يحتضن الأرض مودّعاً قبل مغادرة الميناء. قبل تصديره. أحمد حسن القطع غادر بغير هوية أو جواز سفر أو تصريح. غادرنا بغير ختم. الخراف تضيق بالأختام على الجلد المسلوخ. الخروف المسلوخ تحوّلت ساقه عند المساء إلى قبضة أمسكت بيد الساطور. قبضت عليها جيّداً. ترجّلت من الوضع المقلوب وهوت على يد الجزار فبترتها. وجُنّ الجزار من زمن تنزل فيه الذبائح الى الشارع وتمشي مسلوخة. وجُنّت الخراف من زمن تُختم فيه مذبوحة. الخروف غادر وضعه. غادر جلده متخلصاً من الختم. الأختام تحتجّ من زمن تمشي فيه الخراف بدون جلود.

أحمد حسن لم يحتجّ على شيء،لم يتمرد على شيء،لم يخرج من شيء إلا الأرض والميناء والهواء. أحمد حسن القطع وطئت قدماه لأول مرة موانيء الغربة التي ضختّه الأنابيب إليها. لملم قِطَعَه، الساق المبتورة، اليد، الأحشاء، الرأس المفلوق، وعاد، بعينين نصف حالمتين. أحمد حسن العائد لم يستقبله أحد في المطارات في الموانيء. لم يتعرف عليه أحد. نسي أن يختم من هناك بخاتم التصدير. أحمد حسن العائد بدون شهادة ميلاد. بدون جواز سفر. بدون اذن زيارة. بدون أية وثيقة مختومة تثبت انتماءه. أحمد حسن العائد تورط. عاد إلينا فتورّط. كل الوقائع المسجلة المختومة، كل الشهادات، كل الملفات تفيد أنه توفي بضربة شمس، أنه مات. أحمد حسن العائد يبحث عن مخرج. عن غير تصديره مرة أخرى قطعاً قطعاً. يبحث عنا. عن وطن غير الأنابيب. الأنابيب ترفض تصدير أحمد حسن العائد. يتورط. لا الموانيء تستقبله ولا المطارات. لا الناس تعرفه ولا الأختام. لا الشمس تعرف جبهته السوداء ولا الحشرات. الحشرات ما تزال تقتفي آثار القِطع ورائحة الدم. وتحتج على أحمد حسن القطع. أحمد حسن العائد تنكره الحشرات والسواطير والانابيب والاسفلت والشوارع والماء والشمس والهواء. أحمد حسن العائد يبحث عن مخرج. يبحث عن ختم. يبحث عن جلد يختفي تحته. الخراف المسلوخة رفضت أن ترتدي غير جلودها الأصلية. قابل أحمد حسن العائد المتورّط خروفاً بدون جلد.

«هيا.. دلني الآن على الجزار» أحمد حسن العائد يقتفي آثار خطاه. الخروف يرفض أن يدخل. أحمد حسن العائد يدخل ويعلّق نفسه بدلاً من الخروف. وبعينين نصف حالمتين نصف دامعتين يتعرف على وجوهنا ويحتضن ساطور الجزار.